زائر الصباح

مجموعة قصصية لفاروق منيب

***

يمكن ان نقول دون خشية الوقوع في خطأ التقدير ان فاروق منيب يعد احد المثلين للكتاب الشباب الجادين في فنهم الذين يتخذون موهبتهم وقدراتهم الفنية سبيلا لتوصيل قيم وافكار ومثل انسانية بناءة .. ينعكس هذا في مجموعتيه ، الاولى : الديك الاحمر ، والثانية: زائر الصباح ، وهو نوع من الكتاب نحن في حاجة اليه ليحمل عبء الامانة الفكرية والفنية معا دون النزدي في هوة الاستبطانات العاطفية المكرورة للطبيعة البشرية التي ملتها الاسماع من فرط تكرارها لدى كثير من كتاب القصة القصيرة – على وجه الخصوص – الذين يتناولون امورا هي ابعد ما تكون الان عن مطالب مرحلة تطورنا الثوري .. ولا اعني بهذا ان نهمل الفن لنبحث عن مرددي الشعارات وانما اعني به ضرورة معاصرة الفنان لقضايا مجتمعه ومطالب فترته وضرورة التزامه ايضا بنظرة شاملة واضحة محددة يصدر عنها في كل ما يكتب .. واضعا في اعتباره ان الانسان هو المادة الجوهرية لكل فن عظيم وان تقويم اي عمل من الاعمال الادبية – لا سيما القصة القصيرة بحكم سعة انتشارها وملاءمتها للاستجابة لمطالب الثقافة اليومية العصرية – ينبغي ان نبحث فيه عن العلاقة بينه وبين الحياة بمعنى ان ننظر اليه من خلال مهمة الفن التي تتركز في خدمته لمطالب المجتمع وحاجات الانسان الفرد فيه.. واستنادا الى هذه النظرة اجد ان فاروق منيب صاحب قضية يكتب من خلال وجهة نظر محددة الابعاد .. سواء في مجموعته الاولى او الثانية هادفا الى احلال مثل وقيم معينة في الواقع تفاوت وعيه وتمثله لها في المجموعتين .

ففي الديك الاحمر ارتبط فاروق من حيث الشكل والمضمون معا بالواقع ، مدفوعا الى هذا الالتزام برؤيته الفكرية فتحسسه واستخرج منه ابطاله الذين شكلوا نماذج داخلة في صميم لحمة هذا الواقع متفاعلين معه في ايجابية متحمسة لا تعرف الكلل داخلين في جدلية اجتماعية يجتمع فيها التناقض والتضاد والنفي وقد عالج قصصه في هذه المجموعة الاولى بتعبير الواقعية المباشرة التي تستلزم التصوير المباشر والصدق الحرفي لخطوط الواقع الموضوعي في علاقتها بعضها ببعض وتحديد مكان الشخصيات منها .. هذه العلاقة المركبة التي تشكل الموقف الذي غالبا ما يشي ببسمة تفاؤل ولو كانت شاحبة .. وفي سبيل ذلك وجدنا فاروق في الديك الاحمر مهتما بمطالب الواقعية المباشرة فهو يبرز مشخصا عناصر المجال كالزمان والمكان والسمات الاجتماعية والجسمية لابطاله وسائر العناصر المادية الاخرى للعالم الموضوعي التي بتركيبها مع افكار البطل في وحدة تنتج لنا الموقف وتشي بالموضوع .

ولقد كانت الديك الاحمر تمثل فكريا وفنيا ايضا مرحلة الشعار والاكليشيه ، ومرحلة الحرفية الواقعية بالنسبة لتطور فاروق الفكري والفني .. ففيها تسلط للفكر على الفن فالكاتب تهمه افكاره هما شديدا وتلح عليه امانة توصيلها الى المجموع ، لذا وجدنا ابطال المجموعة لا يخلون من شيء من الحماس وجرعات من الامل وبسمة تفاؤل تعلو الشفاه لدى اكثرهم يختفي وراءها اصرار على الهدف ، وكلها مظاهر للايمان بحتمية الوصول الى الهدف النهائي مهما طال الطريق .. ابطال لا يخلون من مثالية في ايمانهم بهذه الحتمية ..

اما زائر الصباح فتمثل في اغلبها مرحلة فكرية وفنية أزعم انها المرحلة الوسطى في نضج فاروق منيب ككاتب للقصة القصيرة يحمل تبعات التزام فكري وفني معا .. وقد استقبلت هذه المجموعة استقبالا حسنا ، كتب عنها الاستاذ سيد جاد في جريدة المساء والاستاذ يوسف الشاروني في مجلة المجلة وكذا الاستاذ عبد الله الطوخي .. ولكن ندوة الاسبوع في برنامج مع النقاد كانت اول كلمة طويلة مفصلة قيلت في هذه المجموعة . فقد كشف الناقدان الكبيران الاستاذ انور المعداوي والدكتور علي الراعي الكثير من السمات الفنية والفكرية لقصصها مركزين الاضواء على مسائل هامة اخص منها بالذكر انتقال الكاتب من الواقعية المباشرة الى ما اسماه الدكتور الراعي بالواقعية الشعرية مستخدما في ذلك وسائل فنية جديدة تومىء باصبع طويلة الى جرأة فنية في تطوير الشكل وفي فتح افاق جديدة امام لغة التعبير في كتابة القصة القصيرة ..

وفي رأيي ان انتقال فاروق منيب الى الواقعية الشعرية لا يمثل نضوجا فنيا خالصا بقدر ما يمثل استجابة لطبيعة القضية الكامنة وراء قصص مرحلة زائر الصباح وبالتالي فان التجديد في الوسائل الفنية واصطناع هذا الاسلوب ناتج عن طبيعة هذه القضية ايضا بمعنى ان الشكل هنا منبعث من طبيعة المضمون وابعاده ..

ففي المرحلة الاولى – مرحلة الديك الاحمر – كان الكاتب مؤمنا بافكار يبشر بها ، وقد مرت فترة طويلة خبر خلالها الكاتب طبيعة افكاره وقيمه وابعادها ومطالبها التي دونها لن تتحقق هذه الافكار ولن تحل في الواقع .. والقضية التي نستقرئها في قصص مرحلة زائر الصباح تمثل في ابعادها المتعددة مطلبا يجب تحقيقه لاحلال افكاره في الواقع . في المرحلة الاولى كان ابطاله يمثلون افكاره الاساسية بكفاحهم واصرارهم وتفاؤلهم وايمانهم بحتمية الانتصار رغم كل هزيمة .. ولكنه في المرحلة الثانية بعد ان وجد ان ابطاله لم يحققوا مثلا بالرغم من كل هذا الايمان والتفاؤل فقد بحث عن الاسباب والدوافع الكامنة وراء عدم انتصارهم فوجدها تتمثل في الحاجة الى اخلاقيات جديدة ..

فقصص مرحلة زائر الصباح تقول بالحاجة الى اخلاقيات جديدة، اخلاقيات مستمدة من مثل وقيم شريفة ليست منعزلة عن الواقع وانما هي فيه موجودة في ديمومة يقف دون فعاليتها الزيف والتواطؤ والافتقار الى الشجاعة ، فهو لا يحلم بالشرف والحب والصراحة والشجاعة والنقاء انما يصرح بان هذه القيم موجودة في المجتمع وان المزيفين هم الذين يقفون دون طفوها على سطح الواقع ، ويقول بوجوب انعكاسها على الواقع في وحدات سلوكية تبدأ بازاحة التحديات والموقف الشجاع والايمان بجدوى الحب والعمل للانسان ومن اجل الانسان ...

وزائر الصباح ليست كلها تشكل مرحلة جديدة انما اجدني متفقا مع الاستاذ يوسف الشاروني في تقسيمه لها الى قسمين اولهما امتداد للديك الاحمر والثاني يمثل مرحلة زائر الصباح . والاول يضم القصص الآتية : شقاوة ، زجاجة عطر ، صندل جديد ، الوجه الكبير ، الجرح . والثاني يضم : جبال بلا ذكريات ، خيال ، عنبر ، زائر الصباح ، احزان ، التفاحة ، عبر النار ، الانسان والتمثال ، لحظة تعب ، هروب ، سأم ، وابو دراع ..

وفي هذه القصص الاخيرة نلمس ان ثمة رؤية مسبقة للقضية ، التي اشرت اليها ، في ذهن الكاتب ، وهو يعالج هذه الرؤية موزعة على قصصه لكنها تبدو واضحة في وحدة المعالجة ، ورسم الشخصية ، وطريقة البناء القصصي ، والاسلوب الشعري ، وفي تمثيل اغلب ابطاله لطبقة اخلاقية معينة اكثر من تمثيلهم لطبقة اجتماعية معينة ، يظهر هذا بوضوح في قصتي جبال بلا ذكريات وزائر الصباح ، ويبدو اثر هذه الرؤية ايضا في الازمة المستولية على ابطاله وفي حزنهم العميق وبحثهم الملح عن طريق انساني الى الخارج من اجواء غير انسانية، وهذه القصص في مجموعها تعبر عن شرائح من هذه الرؤية او فلنقل القضية..

زيف الواقع والحاجة الى الحرية في « جبال بلا ذكريات » ،رفض

الزيف رغم الهزيمة في « خيال » ، الحيرة المريرة امام اعماق ثـابتة وواقع متغير في « عنبر » ، علاج لازمة الحاجات المعنوية الملحة كالحرية والحب والطمأنينة والاخاء الانساني في « زائر الصباح » ، الاصرار على حب الحياة والمشاركة في واقعها رغم الحدود النهائية كالموت فـي « أحزان » ، التماس الكفاية لكل الناس والحلم بتحقيق نعيـم ابدي على الارض في « التفاحة » ، الانفصال بين الواقع الزائف المـزدحم بالكذب والتواطؤ الذي يلغ فيه بعض الكتاب وبين الواقع بما فيه من صدق ودفء وانسانية وعنف ومرارة وثراء تتحدى جميعا الاحلام الغبية والفصل التعسفي والتمزيق السهل للحياة لدى كتاب لا يعايشـون الحياة الانسانية ويرفضون معاناة صدقها بجمع كيانهم في «عبر النار» و « الانسان والتمثال » و « لحظة تعب » و « سأم . » ، ... الانفصال الجدي بين الواقع المر وبين الامل في الواقع الاخلاقي الجديد ، بين ما هو كائن وما ينبغي ان يكون ونعثر العبور من هذا العالم الى ذاك بغير الرفض والتمرد في « هروب » ، واخيرا اليأس من الواقع اللااخلاقي واعلان الاحتجاج كحل في قصة ابو دراع الذي كان موته احتجاجـا واعلانا انه لم تعد الارض تتسع للشجعان بعد ..

هذه الشرائح من القضية تمكننا من الكشف عن هذه الرؤية الفكرية المسبقة التي وضحت في القصص وكان لها اثرها في غلبة بعض السمات الفنية الاخرى بصورة جلية ، هذه السمات التي نلخصها في :

اولا : تمثيلها من حيث لغة التعبير « للواقعية الشعرية » فجملها قصيرة سريعة متلاحقة كادت حروف العطف ان تنعدم بينها ، مركزة لها شحنات عاطفية قوية ، الفاظها موحية مصورة جعلت القصة في بعض الاحيان تقترب من الصورة او اللوحة الفنية الناطقة باسرار يوحي بها الكاتب ولا يصرح ، اكثر من اقترابها من القصة ، وهي ظاهرة نجدهـا غالبة على بعض المجموعات القصصية الاخيرة التي صدرت لكتـاب شبان ، بالاضافة الى الثراء الملموس في خبرة الكاتب بالقاموس اللغوي الذي لا نلمسه في كثرة الالفاظ بقدر ما نلمسه في فهمه لدلالاتهـا وتحسسه لالوانها وطعم اشعاعاتها واستطاعته تحديد ابعادها .. فالالفاظ تأتي في الجملة في موضعها الدقيق تقوم بوظيفتها بايحائها الهادىء او الحاد او المر .. فتنمو دائما نحو التصوير المركز او التصوير الناطـق بما يود ان يوصل الكاتب .

ثانيا : الاهتمام والتركيز على العالم الداخلي للاشخاص الـذي ادى بدوره الى تجديد في التكنيك السردي .. فالسرد لا يعتمد على الحكاية المنظمة المنطقة بقدر ما اصبح يعتمد على الاستدعاء والتداعي الذهني والعاطفي للحظات وشرائح من الماضي ومزجها باللحظة الحاضرة وانعكاس هذا كله في هارموني واحد مجاله وعي البطل .. قد يتوفـر له الاتساق في اغلب القصص وقد لا يتوفر في اقلها ولكن تربطه فـي الحالين الوحدة النفسية والشعورية التي هي نتاج معقول لوحدة القضية القائمة وراء هذه القصص جميعا ..

ثالثا : وضوح ازمة الوجدان الاخلاقي في القصص فابطاله فـي مجموعهم مشتركون في الاحساس بالانسحاق تحت رحى ظروف معينة وفي الحاجة الى الانعتاق من هذه الظروف بطريق ايجابي يعلنه الكاتب بوضوح في القصة التي اختار ان يسمي المجموعة باسمها ، ذلك الطريق هو طريق زائر الصباح نفسه الذي يتملى الكاتب طاقاته في الحب والعمل ويلتمس الحل في احلالها في الواقع .. فالابطال جميعا يوحد بينهم البحث عما هو انساني في حزن يشملهم ويمنح القصص جميعا جوا من الشجن الانساني المؤثر والعاطفية الرقيقة ..

رابعا : نتيجة للتركيز على العالم الداخلي للاشخاص نجـد ان فاروق لا يتحمل عبء الحركة الكاملة للطبيعة البشرية فـي تعقيدها الواقعي انما هو يكتفي بما يمكن ان يسمى « لحظة اشراق في وعي شخصياته » ، وهي لحظة تبدأ دائما بمناقشة الواقع بغضب ظاهر او مستتر ، هذا الواقع الذي تتحكم فيه ظروف اقوى من ارادة حـرية الحركة في هذه الشخصية او تلك ، وخلال هذه المناقشة يعرض لنـا الازمة التي يتلوها متضمنا فيها ايضا البحث عن حل ثم اخيرا اتخاذ موقف تتفاوت درجة ايجابيته وقطعيته ..

خامسا : استخدام الخيال متضمنا في تيار الوعي لتصوير وتعميق هذا الموقف المركزي الذي يخيل فيه لبطل مثل عنبر ان اباه ما زال على قيد الحياة فهو ينغمر في عالم هذا الاب الذي نرى الابن نسخة منـه يعيش حياة ابيه الكلابية بالرغم من التغير الملموس في انتهاء عصـر الكلاب الدسمة .. والذي يخيل فيه لبطل جبال بلا ذكريات كائنـا حيا يضم في ضميره تاريخا ضاربا الاف السنين فـي اعماق الارض المصرية .

ان القضية الكامنة وراء هذه القصص قد استحالت في القصص من قضية عقلية الى ازمة وجدانات تمثل في مجموعها ابعاد القضية كما رأينا ، وازمة الوجدان هذه قد احسها الكاتب احساسا انسانيا عميقـا وصادقا فاستطاع ان ينقلها الينا في هذا الشكل ، وبمعنى اخر فـان القضية الفنية التي نقول بان المضمون هو الذي يفرض الشكـل او وسيلة التعبير قد تحققت بجلاء في قصص مرحلة زائر الصبـاح .. وباستثناء القصة الاولى جبال بلا ذكريات نجد ان فاروق قد استطـاع بنجاح بناء شخصياته وتصويرها من خلال تيار وعيها بكل ما يموج به في لحظة الاشراق بالمنولوج الداخلي وباستخدام الخيال متضمنا في تيار الوعي دون اقحام لرمز خارجي او افتعال لهذا الرمز .. والحقـائق التي تتكشف من خلال تيار وعي شخصياته حقائق معقدة اكثـر منها جلية .. ولا تتوجه جاذبيتها للعقل وحده ولو بشكل اولي وانما تتجه الى العقل مقرونا بالعواطف ولذا وجدنا الاثر الناتج عن القصة مماثلا في كثير للاثر الذي يحصله وعي المرء في موقف واقعي من مواقف الحياة الا ان الاول اثر مهذب ومركز بصورة تفوق بكثير التجاوب المشوش في الحياة الواقعية ..

قد يكون فاروق قد افاد كثيرا من التجارب الجديدة في مجـال القصة القصيرة الامريكية على الاخص من حيث التكنيك الا ان ما قدمه الينا في قصصه ينأى كثيرا عن الاستبطانات العاطفية او الميتافيزيقية يرجع ذلك الى وضوح رؤيته الفكرية لقضاياه ...

وبالرغم من ان فاروق منيب ينتهي بابطاله جميعا الى حلـول ايجابية الا ان ايجابيته هنا تفتقر في كثير الى العقل الحاسم والاداء الحاسم لهذا العقل ، يتمثل هذا على سبيل المثال في قصته جبال بلا ذكريات ، التي نجد البطل فيها رغم الرفض يختار الحل في الانتظـار الصابر والبقاء على ارض لها دلالاتها الانسانية في نفسه .. ولكن العقل الحاسم والاداء الحاسم ليسا فضيلة الثوري في كل موقف لان روح ثورية فاروق منيب في مرحلة زائر الصباح تتمثل في مرونته الانسانية النابعة من حسه الانساني بالازمة الاخلاقية .. التي يرى حلها في وضع المثل الانسانية وضعها الصحيح باساليب انسانية وليس باتخاذ دوجما لا ترتبط بمطالب الواقع بقدر ما ترتبط بحتمية مثالية فحسب . ولذا وجدنا الايجابية لدى ابطاله ايجابية واقعية فبطله لا يهرب ولا ينفلـت عياره فيصبح عدوانيا باسم مثله لان كلا الحلين للازمة ليسا اكثر من اختيار للقطب السالب بينما طبيعة الموقف العامة تجعل البطل اشد ما يكون حاجة الى قطب موجب على اي مستوى ينتج المجال الجديـد للحركة ذات الدلالة والمعنى الانسانيين الصافيين .

واخيرا فان فاروق منيب في هذه المرحلة يبدو لي اكثر واقعية في رؤيته لازمة الواقع ، وقد حقق بهذه المجموعة نجاحا يستحقه بصبره وباستطاعته علاج الفكر بالفن الى حد كبير .. وفي المرحلة التالية لزائر الصباح نتنظر منه جديدا ...

القاهرة — عبد المنعم عبد القادر

الطريـــق

رواية بقلم نجيب محفوظ

***

الملاحظ ان « نجيب محفوظ » في رواياته الثلاث الاخيرة : « اللص والكلاب » و« السمان والخريف » و « الطريق » انما يتحدث عن البطل التراجيدي الذي يعيش الازمنة ، ويعانيها بكل ابعادها ، والذي يحاول جاهدا ، في نفس الوقت ـ البحث عن طريق يخرجه من هـذه الازمة ، ويوصله الى شاطىء السلامة .

هذا مع اختلاف في طبيعة الازمة التي يعانيها كل بطل من ابطال رواياته الثلاث ، وبالتالي اختلاف سلوكه وبحثه عن الطريق والمخرج .

« فسعيد مهران » في « اللص والكلاب » ثائر ضد الغدر والخيانة والظلم الاجتماعي .. يمثل تطلع الملايين الى مجتمع خال من هـذه الامراض « ان من يقتلني انما يقتل الملايين » ولكن سعيد مهران يقتل في النهاية لانه وان اصاب الهدف ، فانه اخطأ في الطريق الموصل الى هذا الهدف ، فكانت كل ضرباته طائشة .. وهنا كانت ازمته ومأساته التي لم يدرك سرها الا بعد فوات الاوان .. لقد ادرك في النهاية فقط انه كان ينقصه التنظيم والارتباط بالجماهير من اجل احداث التغيير ..

و « عيسى » في « السمان والخريف » يعيش ازمة من نوع اخر.. ان عيسى بحكم حياته وتاريخه « مخلوق سياسي قبل كل شيء » ولكن الظروف والتطورات الجديدة حرمته من القيام بأي دور سياسي .. ولذلك يشعر انه سيظل بلا عمل ولو وجد عشرات الاعمال .. وهنا كانت ازمة عيسى التي جعلته يحس بالعزلة والاغتراب ويعيشهما حتى الثمالة الى ان يوقظه في النهاية الشاب الاسمر القوي المتفائل ، الذي « يحمل وردة حمراء » والذي يعمل ويشق طريقه رغم جميع العقبات .. والذي يمد يده الى عيسى ، متخطيا اساءة عيسى اليه في الماضي ورغم تردد عيسى الا انه يسرع للحاق بهذا الشاب ، ويسير وراءه في الطريق !..

***

اما « صابر » في « الطريق » فنموذج اخر ، يعيش ازمة مختلفة .. نوعية اخرى من الازمات .. يبحث عن طريق ينتشله منها ويجنبه ويلاتها ..

« صابر » في « الطريق » هو الانسان الصابر في طريق الحياة.. الانسان الذي يبحث عن اجابة لعلامة الاستفهام الضخمة التي تمثلها حياته .. الانسان الذي يبحث عن « معنى كلي » للحياة يمنحه تفسيرا شاملا لوجوده .. عن قوة هائلة ، تملك قدرات لا حد لها تحل له مشاكله وتخرجه من ازماته .. عن جدار ضخم يستند اليه ، ويشعر ـ في ظله ـ بالامان والاطمئنان .. ويتحقق له ـ في ظله ـ الحرية والكرامة والسلام.

وصابر يبحث عن ابيه الذي يمثل له كل هذه القيم والقدرات ..

ولكن ازمة صابر تنبع من انه في بحثه عن ابيه ، قد جعل كل شيء متوقفا على عثوره ووصوله الى هذا الاب .. فلا جدوى للحب بدونه ، ولا خير في عمل لا يأتي عن طريقه .. ولم يستطع صابر ان يؤمن بأنه يمكن ان يكون للحياة معنى بدون ابيه .. وان الانسان يمكن ان يحقق المعجزة .. وان يحقق الحرية والكرامة والسلام بدونه .. بطريق اخر غير طريقه .. لم يستطع صابر ان يؤمن بوجود هـذا الطريق ، ولا ان يسير فيه عندما لاح له ..

وكانت النتيجة ، انه لم يستطع حتى ان يواصل بحثه عن ابيه ، بل وسقط في وهدة الجريمة .. الامر الذي حاول جهده ـ عن طريق البحث ـ ان يتجنبه وان يبعد عنه ..

وحين اصبح قاتلا .. ودخل سجن الموت ، عاد من جديد يتذكر مهمة البحث التي كان قد نسيها .. ويتطلع الى المعجزة التي يمكن ان تنقذه . ورغم ان كل المعلومات التي استطاع ان يجمعها حول وجود ابيه ، تزيده بعدا عنه ، وتجعل هذا الاب « اعز منالا من الاول » رغم هذا يظل صابر يتطلع اليه كعامل انقاذ . وحين يخبره المحامي ان ذلك لن يفيده ، وان « القانون هو القانون » وان مصيره « بيد القانون وحده » ، وانه « لا جدوى الا فيما هو معقول » .. هنا يهز صابر منكبيه قائلا : فليكن ما يكون .

وهذه الجملة التي ينهي صابر بها الرواية ، وان كانت تعني نوعا من اليأس واللامبالاة والاستسلام فانها لا تقطع باليأس الكامل .. فهي لا تقطع بوجود او عدم وجود الاب .. كما ان صابر نفسه لم يعد بعد.. فما زال هناك الاستئناف ثم النقض ، ولكن ذلك متوقف ، كما قال المحامي على « القانون وحده » ! وهذا يعني ان بحث الانسان عن قوى خارج واقعه تفسر وجوده وتحقق ذاته ينتهي به الى نوع من اليأس ، وان كان لا يقطع بانكار وجود هذه القوى . اما مصير الانسان فيظل مرتبطا بالواقع وقوانينه ، واذن فعليه ان يجد وان يسلك طريقا واقعيا لتحقيق ذاته وامتلاك مصيره ، طريقا واقعيا الى الحرية والكرامة والسلام .

بعد هذا الاستعراض التحليلي او التفسيري السريع للخط العام للرواية ، وللطريق الذي سار فيه صابر ، نقوم باستعراض احداث الرواية ، ونسير مع صابر منحنيات وتعرجات طريقه لنرى مدى صدق وموضوعية هذا التحليل والتفسير .

***

عندما كانت « بسيمة عمران » على فراش الموت ، عقب خروجها من السجن ، قالت لابنها صابر : « يجب ان تهجرني » ، « الى ابيك ».. « الى المخرج الوحيد من ورطتك » . انها لم تكن تقدم الى صابر الا المال .. لكنها لم تهيىء له « كرامة ولا عملا ولا سلاما » .. والمال صادرته الحكومة .. وبذلك انتفت اهميتها بالنسبة اليه سواء ماتت أم عاشت « الواقع ان الحكومة صادرتك ساعة صادرت اموالي لم يعد لي الحق في امتلاكك انت ايضا » .

اما الاب الذي يجب ان يبحث عنه ، فالمال « ليس الا حسنة من حسناته » و « لاحد لثروته او نفوذه » و « كانت الدنيا تهتز لدى محضره » . وسيجد في كنفه « الاحترام والكرامة » .. وسيحرره « من ذل الحاجة الى اي مخلوق » .

هكذا تخبره امه عن قدرات ومزايا ابيه .. لكنها تخبره ايضا ان مشكلته الحقيقية ستكون في العثور عليه .. لان هذا الاب « لعله ميت» و « لعله حي » . ويتساءل صابر « قد اضيع عمري في البحث عن شيء قبل التأكد من وجوده » . لكن امه ترد « ولكنك لن تتأكد من وجوده الا بالبحث وهو على اي حال خير من بقائك بلا مال ولا عمل ولا امل » .. ولان البديل « ان تعمل برمجيا او قوادا او قاتلا » وان اليأس « يدفعنا الى ما هو اغرب من ذلك » .. وانك « اذا لم تيأس فسوف تعثر عليه » .. والحق انه « لا خيرة لك فيما انت ذاهب اليه».

وهكذا اندفاعا من موقف اليأس، وبالضرورة التي لا خيار فيها اخذ « صابر » « المفلس المطارد بماضي ملوث بالدعارة والجريمة يتطلع بمعجزة الى الحرية والكرامة والسلام » . وهذا الموقف يعني ان الانسان ، ساعة اليأس والشدة والضعف ، حين تسد في وجهه سبل الواقع ، انما يلجأ ويتطلع الى قوة فوق الواقع لكي تنتشله وتنقذه . ويعني ايضا ان الانسان هو الكائن الوحيد الذي عليه ان يبحث وان يجد معنى وتفسيرا وهدفا لوجوده .. لا خيرة له في ذلك ..

حين يقول صابر للمحامي « جئت من الاسكندرية للبحث عن ابي فوقعت احداث غريبة نسيت فيها مهمتي الاصلية حتى وجدت نفسي اخر الامر في السجن .. والان (لحظة يأس اخرى) أكاد انسى كل شيء الا المهمة الاصلية التي جئت من اجلها » .. هنا يقول له المحامي « لا جدوى من التفكير فيها الان .. ربما اشرت اليها باعتبارها جناية كتبت

عليه قبل أن تولد » ! أي أن البحث عن معنى الوجود وسر الحياة قدر مكتوبة على الانسان وضريبة مفروضة عليه .

***

بحثا عن ابيه « سيد سيد الرحيمي » والذي لا يعرف عنه « سوى اسمه » هذا .. يشد صابر رحاله الى القاهرة .. وينزل باحد فنادقها المتواضعة « فندق القاهرة » ..!..

حيّن يتساءل احد القاعدين في استراحة الفندق « واين الله خالق كل شيء وحافظه ؟ » .. يتساءل صابر ايضا : « اين الله حقا ؟؟. هو عرف اسم الله ، ولكنه لم يشغل باله قط ، ولم تشده الى الدين علاقة تذكر ، ولا شهد النبي دانيال (حيث كان يعيش في الاسكندرية) ممارسة عادة دينية واحدة . فهو يعيش في عصر ما قبل الدين » .

هكذا يعترف ويقرر صابر ، لكنه اذا كان يعيش في عصر ما قبل الدين ولا يعرف من الله سوى اسمه فقط ، فهو الان يبحث عنه .. يبحث عن اله .. عن دين ، عن ابيه « سيد سيد الرحيمي » ولا يعرف ايضا « سوى اسمه » وبعض معلومات مسموعة غير قاطعة .

فحين يقول لاحسان الطنطاوي مدير الاعلانات بجريدة « ابو الهول» حيث ينشر اعلانا عن ابيه « المفروض ان الرجل معروف على اوسع نطاق ! » يرد احسان قائلا : « انت لا تعرف سوى اسمه وما عدا ذلك بالسماع عرفته ، ولا يمكن ان تقطع في ذلك برأى حاسم » !.

في طريق صابر بحثا عن ابيه ، يلتقي بكريمة الامتداد الحي لامه.. وبالهام الامتداد او البديل الواقعي لابيه .. كما يلتقي عرضا ـ بالقاعدين في استراحة الفندق يناقشون اسعار القطن وخطر الحرب .. وبالشحاذ الذي يتردد صوته بالمديح في الخارج .

لقد استقطب كاتبنا العظيم ، نجيب محفوظ في هذه المواقف الاربعة جوهر المواقف الانسانية المختلفة ازاء العالم والكون والحياة .. والمفاهيم الانسانية المختلفة لمعنى الوجود الانساني ، وبالتالي للطرق المختلفة التي يسير فيها الانسان لتحقيق ذاته ووجوده ومعنى حياته . فالجالسون في استراحة الفندق ـ وهم يمثلون الناس البسطاء العاديين ـ تستغرقهم مشاكل الحياة اليومية ، ومتطلبات الواقع واحتياجاته واخطاره .. وهم ان سلموا بوجود القوى فوق الواقعية ، وتساءلوا ـ فيما يشبه الاستنجاد ـ عن وجودها وقوتها احيانا « اين الله خالق كل شيء وحافظه » ، الا ان البحث عن هذه القوى او التأكد من وجودها لا يشغلهم ولا يعنيهم . وانما تدور حياتهم وتتركز في امور الواقع ومشكلاته الملحة .

يقول احد القاعدين في الاستراحة « القطن !.. كل شيء يتوقف على القطن ! »

ويتساءل صابر « لم ؟. أهو رحيمي اخر ؟ » .

وبالفعل ان رحيمي هؤلاء الناس ، والهم المعبود هو الواقع المباشر بكل اخطاره ومرغباته ورغباته ومطامحه ومطامعه المباشرة ..

و « الاحاديث في الاستراحة لا تتغير رغم تغير الوجوه » .. ويقول صابر « لعلهم مثلك يجرون وراء أمل شبيه بما يعدك به ابوك المفتقد » .

وعلى النقيض من هذا الموقف .. على الطرف الاخر المقابل ، يوجد الشحاذ بمديحه المتواصل وصوفيته المغرقة .. ولقد كان « الشحاذ في شبابه فتوة داعرا ، ولكنه فقد كل شيء من قوة ومال وبصر فتسول » . لقد انسحبت ارض الواقع من تحت قدميه ، وفقد كل مقومات الحياة الواقعية واسلحتها ، فعاش عالة عليها متسولا .. وتركزت حياته حول المديح والانشاد في رحاب التصوف !..

ولنلاحظ ان انشاد الشحاذ كان دائما في الخارج .. خارج الفندق .. فندق « القاهرة » !. أي خارج الحياة .. على هامش الحياة الواقعية التي تدور في داخل الفندق وتتخذ من استراحته مسرحا لها . ان هذين الموقفين المتناقضين يذكرهما المؤلف في مواضع كثيرة من الرواية مقترنين او منفردين ، اشارة الى استمرارهما كخطين او طريقين من طرق الحياة « أما حديث المال والحرب فلا ينقطع في الاستراحة .. كانشاد الشحاذ في الخارج » .

ولكن صابر لا يختار ابا من هذين الطريقين .. بل لا يفكر فيهما حتى كطرق للخروج من ازمته ومأسانه .. فهما طريقان سهلان مباشران : احدهما يستغرقه الواقع المباشر .. والاخر يستغرقه عالم ما فوق الواقع .. احاديث الجالسين في الاستراحة « ثرثرة » . وصوت الشحاذ « نداء ضائع كالاعلان وثروة الام المصادرة ! » انهما لا يقدمان له اجابة متكاملة او منطقية لمعنى الحياة .. لا يقدمان له الحرية والكرامة والسلام !.

لكن صابر ، في بحثه عن ابيه ، يتنازعه طريقان : طريق كريمة ، وطريق الهام . كريمة زوجة عم خليل صاحب فندق القاهرة الذي ينزل فيه صابر .. انها فتاة في عز الشباب ، تشد عينيه بقوة ليست بلا سبب .. « السمرة الرائقة النقية .. والعينان اللوزيتان الدعجاوان وبريقهما المضيء المفعم بالنبض والاقتحام » ..

في صباح ليلته الاولى بالفندق ، اختلطت احلامه واشتهاؤه لكريمة باحلامه بمجيء ابيه ... « وفي لمحة واحدة تجلت لمخيلته صورة ابيه ، والوجه الدافيء المفعم بالاثارة » .. انه دائما جريء غير ان الجرأة هذه المرة تفسد عليه البحث او تعرقله .. ولكن على أي حال ما زال البحث هو مهمته الاولى .

وفي مقر جريدة « ابو الهول » يلتقي بالهام التي تعمل هناك « رشيقة نحيلة » ، « تكوين الرأس والوجه غاية في الاناقة والبراعة ، انبعث اليه منه شعور بالجذب والطمأنينة » .. ، « هي طاقة من عبير لطيف يدعو الى استباحة الاسرار ليست كالنار التي صهرته بالفندق».

وحين قابل الهام في « فتركوان » لاول مرة « زاد انتعاشا باشعاعاتها التي ترفعه الى مستوى غير مألوف في علاقاته مع الناس ، وشعر ببهجة غريبة » .

وهكذا ، الى جانب البحث عن ابيه ، اخذت الهام وكريمة تتنازعان نفس صابر « فالهواء ضروري جدا ، والنار لا غنى عنها » .

انه ما زال يتمنى اذا لم يأت ابوه ان « تهلك الذرة كل شيء » .. كما يتمنى أن يهلك جميع من بالفندق ليخلو له هو وكريمة ، فما احوجه « الى دفء الشهوة المعزية في فترات الراحة من البحث » .. وما زال يرصد ميعاد الذهاب الى الجريدة ليرى الهام من جديد ، فطريق البحث « شاق وطويل فيحتاج الى استراحة من الظل الظليل » . وان كان ينسى عند اشتعال غرائزه لدى رؤية كرية « التليفون والرحيمي والهام » ..

دار الآداب تقدم

معين توفيق بسيسو

في ديوانه الجديد

فلسطين في القلب

صرخة ونداء وامل

صدر حديثا — الثمن ٢٠٠ ق. ل

ولكن .. برغم العقبات الكثيرة ما زال البحث عن أبيه يحتل المركز الاول من نفسه .. « فامرأة الفندق متعة يرغب فيها .. والهام عبير طيب .. ولكن ما قيمة أي شيء قبل العثور على الاب ؟ » .

لكن حين تحققت رغبته في كريمة .. حين « تحقق حلم الجنون في دوامة من الذهول ، وانصهر التأمل في وقدة طاغية ، وسبحت موجة من النار في الظلمة الدامسة » ، حين حدث هذا قال لكريمة « انني لن اهتم منذ الساعة بشيء سوى انتظارك » وقال لنفسه فيما يشبه الحلم « انه يشعر لاول مرة بأنه يحتمل ان يستغني عن أبيه » .

ولكنه ، وفيما يشبه الحلم ايضا .. يندفع لتناول سماعة التليفون حين يتصل به « سيد سيد الرحيمي » ويطلب لقاءه في « فتركوان » . وهناك يجده صابر الذي لم يره من « قبل الا بالتخيل » « اضخم وافخم من اي خيال » . ويقول له الرحيمي « ان الاعلان يدل على انك لم تستطع الاهتداء الي بالطريق العادي على حين انني رجل معروف جدا ، ولا ايسر من الاهتداء الى بيتي او مكان عملي ، لذلك تجاهلت نداءك ، ولما لمست الحاحك لم ار بدا من الاتصال بك » .. ويمزق الرحيمي شهادة ميلاد صابر وشهادة تحقيق شخصيته ، والصورة الجامعة بين الرحيمي وامه ووثيقة زواجه بها ، ويحاول صابر ان يمنعه ، ولكن « بعد فوات الاوان » ويقول له صابر « انت تمحو وجودي محوا فالويل لك » فيرد الرحيمي الذي لم يكتشف اي شبه بين صورته وبين صابر ، وكانت أم صابر قد اخبرته انه صورة من ابيه .. يرد الرحيمي قائلا : ابعد عني .. لا ترني وجهك .. دجال كأمك .. ولا شأن لي بك .. اذهب » .

ويكتشف صابر ايضا في هذا الحلم العجيب ان الهام تقبل يد الرحيمي باحترام .. ويهتف صابر « اذن انت تعرفينه ! » .. بل يكتشف انها ابنة الرحيمي « ابنتك ! رباه ! » .

وهكذا حين يخطو صابر خطوة في طريق كريمة ويشعرك انه ـ معها ـ يمكن ان يستغني عن ابيه . وحين يصبح « العشق هو المحور الذي تدور عليه حياته » « وحين يصبح اهتمامه بالعثور على الرحيمي لم يعد في مكانته الاولى » .. حين يحدث هذا فان أباه في الحلم ـ ينكره ويمحو وجوده ولا يكتشف اي تشابه بين صورتيهما .

لكن صابر لم يندفع بعد تماما في طريق كريمة .. « اجل في النصف الثاني من الليل ينسى كل شيء ، ولكن ما ان ينبلج الصبح حتى ننز نفسه شوقا وحنانا الى الهام » ..

وما زال وجه ابيه يطل عليه في الاحلام .. ولا زال يقول لكريمة « لا قيمة لاي عمل يجيء من غير طريق ابي » « حتى حبنا لا قيمة له بدون ابي » ، ولا زال « لا يهون عليه الكف النهائي عن البحث » فانه « اذا قرر ذلك فيسندفع في طريق اخر كثور اعمى » .

ولكن ما هو الطريق الذي تمثله كريمة ؟.. وما هو الطريق الذي تمثله الهام ..؟! انهما ايضا طريقان متناقضان يتنازعان نفس صابر ومصيره « مع الهام تعذبه كريمة ، ومع كريمة تعذبه الهام .. والتوحيد بينهما امنية لا يجرؤ على تمنيها » .

كريمة « ربيبة يلطجي ، جارية سوقية ، مدبرة جريمة رهيبة ، خالقة لذات جنونية » ، ومعها « تهمس تضاعيف الظلام بالجريمة » . كريمة « امتداد حي لامه فيما تهبه من متعة وجريمة » . وصابر يقترب منها فهي « مثله تمرغت في التراب طويلا، وهما يتناغيان حتى على البعد» انه يصارحها من اول لقاء بحقيقة امره ، ولا يجد حاجة للكذب عليها كما يفعل مع الهام .. كريمة هي « دفء الشهوة المعذبة » . كريمة تمثل الجانب الفطري البدائي في نفس صابر .. الجانب الغريزي الحيواني « حاجتك اليها كالجوع الكافر وان قذف بك في اعماق الجحيم .. سوف تعيشان عيشة فطرية تلقائية ، فهي ليست كالهام التي تلهبك بسوط التغير والتعذيب » . كريمة تمثل الجانب الفطري « الطبيعي » الذي يشترك فيه الانسان مع سائر الكائنات الحية .. الجانب القديم العريق المتمكن من نفس الانسان .. الجانب الحيواني « الحياتي » الغريزي الذي وجد منذ دبت في الانسان الحياة حتى من قبل ان يصل الى المرحلة الانسانية . ولذلك فان طريق كريمة اقرب الى نفس صابر واسهل .. انه امتداد لطريق امه .. امتداد لماضيه العريق .. ولكن مخاطر هذا الطريق انه يحول الماضي الى حاضر ومستقبل .. انه يعيد مرحلة البداوة الانسانية ، حيث كان الانسان يعيش على الفطرة ، لا هم له الا اشباع غرائزه .. وكل سلوك مستباح من اجل اشباعها ، حتى لو كان القتل والجريمة .. وهكذا فعل صابر حين اختار في النهاية هذا الطريق ..

اذا كان هذا هو طريق كريمة .. فما هو طريق الهام ؟!

الهام ايضا ـ كصابر ـ فقدت اباها بانفصاله عن امها ، لكنها لم تهب حياتها ، مثل صابر ، لمحاولة الوصول اليه ، ولم تجعل كل شيء متوقفا عليه .. بل انها رفضت ان تعود اليه ، واستقر رأيها على ان العمل « خير من الاب وابقى ! » اما عن شعورها نحو ابيها فكأنه « غير موجود ، هو الذي اختار ذلك ! » . وهي تعتقد ان « الفراغ هو عدو البشر » ، وتدفع صابر للعمل « العمل هو الذي يحل مشكلتنا » .. « اني سعيدة بعملي » .. كما انها تواصل دراستها .. وتفهم الحياة بقدر لا بأس به على حد قولها .. وتقف على ارض ثابتة « اني اعرف ما أريد » ، وهي لا تعرف اليأس .. يقول المحامي الذي وكلته للدفاع عن صابر « مفهوم اليأس ليس في قاموسنا » .. اما عن البحث « بحث صابر عن ابيه .. فهي ترى ان « هذا البحث يجب أن يترك للزمن الطويل » وهي تلهب صابر بسوط « التغيير والتعذيب » . وهكذا يتضح طريق الهام .. العمل .. العمل هو البديل عن الاب المفتقد .. بل ان العمل خير من الاب وابقى .. السعادة المنبثقة من العمل والامل ، وفهم الواقع ، ومواصلة تعمقه وفهم اسراره وتغييره ، (ما زالت تدرس وتلهب) .. اما البحث عن قوى بعيدة .. فوق الواقع فمسألة يجب الا تشغلنا .. مسألة تترك للزمن الطويل !.

الهام هي الامتداد .. او البديل الواقعي لابيه .. ألم يكتشف في الحلم انها تعرف الرحيمي .. بل ألم يكتشف انها ابنته .. وبما ان الرحيمي مفتقد .. فاذن الهام هي الطريق !. يقول صابر لالهام « احيانا نجري وراء غاية معينة ، ثم نعثر في الطريق على شيء لا نلبث ان نؤمن انه الغاية الحقيقية » .. ان صابر الذي يبحث عن الاب المفتقد يجد الهام .. انها الغاية الحقيقية التي يقابلها كل يوم في « فتركوان » في نفس المكان الذي التقى فيه بأبيه .. في الحلم .. ولكنه لم يعرف الا بعد فوات الوقت » .. رغم انه يحبها ويسعده « الوجود بقربها » .. ويقول عن اعجابه بها انه « الحقيقة الوحيدة التي عرفها » ..

الهام تمثل الجانب الواعي المفكر من نفس صابر .. الجانب الخير المتطور .. الجانب الحضاري الذي ابدعه العقل الانساني على مر العصور .. الجانب « الانساني » في نفس صابر المقابل للجانب الحيواني الغريزي الذي تمثله كريمة .

فصابر « مثال فريد للجمال والرجولة » .. فهو نموذج للانسان .. وهو مثال ايضا « للقوة والانانية والدعارة » .. وهذا هو الجانب الغريزي المتمكن المرتبط بأمه ثم بكريمة .. ولكن في نفسه كذلك جانب خير « خفي كشفت عنه الهام » . انها تقول له مادحة « انظر كيف تشقى بالبحث » ، وهي لا تخاطب فيه الا هذا الجانب ، ولا تقرأ في وجهه « سطرا واحدا من الجريمة » ..

ولكن هذا الجانب الخير ما زال هو الجانب الاضعف في نفس صابر .. ما زال الجانب الاخر .. الجانب الغريزي مسيطرا عليه .. لكن هذ الجانب الغريزي المتمكن من نفس صابر ضعيف ازاء الهام ..

فهو حين يفكر ان « يجرب معها حيوانيته يتخيل نفسه مخذولا منهزما » . بل ان الهام تزعزع هذا الجانب وان لم تستطع القضاء عليه .. فهي « وان قامت في حياته كالمنار الا انها اقلقت مخاوفه وعقده ، وزعزعت اركان العالم الذي بناه لنفسه واطمأن اليه » ..

ولكن هذا العالم .. وان تزعزع فما زال هو الاقوى ، وهو المسيطر .. ولذلك فان صابر لم يستطع ان يسلك طريق الهام « لم يستطع ان يرتفع لمسؤولية حبها » .. لم يستطع ان يواجهها بحقيقته .. انه يكذب عليها .. انه يكذب عليها .. انه يضعف امام الحقيقة .. ويقول لنفسه « لم تضعف انت امام الحقيقة ، بالرغم من انك قاتلت حتى اوشكت ان تقتل » . « كم من هموم تتلاشى لو اعترفت لها بكل شيء » .

ولكنه حتى حين يعترف لها بجزء من حقيقته .. وتتقبل هي هذه الحقائق وتقول له « اني اعرف ما تريد » وان « العمل هو الذي يحل مشكلتنا » وتظل تواصل طلبه في التليفون .. لا يستطيع هو ان يواصل حبها .. لا يستطيع ان يقطع المسافة التي تفصل بينهما .. فحسب « الهام سحابة شفافة ولكنها اشق من القتل » .. ولا يستطيع هو ان يبذل هذا المجهود المضني الشاق .. لا يستطيع ان يتخطى ذاته .. لا يستطيع ان يغلب الجانب الانساني « الواعي في نفسه على الجانب الاخر .. الجانب الغريزي .. لا يستطيع ان يسير في الطريق الانساني الصعب .. طريق الهام .. انه فقط يعاتبها « في باطنه عن توانيها في امتلاكه والسيطرة عليه ، وهزائمها غير العادلة امام عدوتها الطاغية .. انت مسؤولة عما سيقع » « كم نادى باطنه الهام لكي تنقذه ، ولكنه نداء اليائس » ... الذي لا يستطيع سوى العتاب والنداء ..

واذا كان صابر لم يستطع ان يرتفع لمستوى مسؤولية حب الهام ، ولا ان يسلك طريقها .. فهو يشك ايضا انها هي الطريق .. وهذا الشك نفسه هو السبب الرئيسي في عجزه عن الوصول اليها .. فهي حين تتحدث امامه عن العمل يقول لنفسه « أي عمل يغني عن الحرية والكرامة والسلام ، وكأن الحرية والكرامة والسلام يمكن تحقيقها بدون عمل .. يمكن تحقيقها عن طريق الاب .. عن طريق قوى غير واقعية .. لان العمل نفسه لا خير فيه اذا لم يجيء عن طريق الاب ، كما يتوهم صابر وفي وهمه هذا تكمن ازمته ومأساته !.

لقد تلخصت مشكلة الاختيار امام صابر في ان « الهام كأبيه فيما تعده به ، وفي انها حلم عسير التحقيق .. اما كريمة فامتداد حي لامه فيما تهبه من متعة وجريمة .. ارجع الى الاسكندرية واعمل قوادا لاعدائك .. اقتل واغنم كريمة ومالها .. استخرج الرحيمي من الظلمات وتزوج الهام » .

ولكن صابر يهجر « وهو حزين حقا » الطريق الشاق المضني .. طريق التفيير والتعذيب والمشقة .. طريق الهام .. ويندفع في الطريق الاخر ، طريق الجرية والقتل والمتعة .. طريق كريمة .. فالايام « تمر والنقود تتناقص ، وحكاية الاب امست اسطورة سخيفة لا يركن اليها بحال . ولا غنى له عن هذه المرأة ، فهي حياته والامل الباقي له في الحياة » ويقول لها : اليأس لا يدع لنا سبيلا ولا وقتا للاختيار » ويقول مخاطبا الرحيمي في يأس بعد ان اختار طريقها « انت تنكر ابنك وابنك سينكرك . ليس في حاجة اليك . سيبحث عن الحرية والكرامة والسلام عند غيرك » .

وابدا لم يكن طريق كريمة ، هو طريق الحرية والكرامة والسلام.. انه حتى لم يوفر له لا المتعة ولا المال .. لانه ليس الطريق !.. انه زوجها طمعا فيها وفي مالها ظانا ان « الانتصار بضربة واحدة خير من العناء والصبر» . وبذلك يزداد بعدا عن الطريق ، وتتسع المسافةبينهما.

في الليلة التي ارتكب فيها جريمة القتل « عند اشارة المرور ، لمح سيارة كبيرة واقفة ، ورأى داخلها رجلا جذب انتباهه من النظرة الاولى، كهل ضخم ، ولكن هذا الوجه محتمل ان .. وانفتح الطريق وتحركت السيارة فصاح بأعلى صوته ، سيد الرحيمي ، وجرى وراء السيارة بأقصى سرعته ، ولكن المسافة الفاصلة بينهما اتسعت الى غير نهاية .. وسرعان ما اختفت السيارة حتى رقمها لم يره » .

ان صابر بارتكابه الجريمة ، واختياره طريق كريمة ، قد ضل الطريق .. وقتل الجانب الخير في نفسه .. قتل الرحيمي في نفسه!.. ويشير هو الى ذلك عندما يقول عن الرحيمي في نفس الليلة ، وبعد الجريمة « سأبحث عنه غدا في القرافة » . ان ما كان يخشاه صابر قد حدث .. ان « الماضي الملوث انقلب واصبح المستقبل الوحيد » !. ولم يكتشف صابر ان الهام هي الطريق الا بعد ان « فات الوقت » .. بعد ارتكاب الجريمة .. فحين ذهب لمقابلتها ، بعد القتل وقبل ان يسجن قالت له « رأس المال الذي تحتاجه تحت امرك » « اؤكد لك اننا سنبتدأ فوق ارض ثابتة » .. ويقول صابر بأسى « آه ليس لحنا جميلا فحسب ، معجزة ايضا .. هل كنت تحلم بذلك . رأس المال بلا سرقة ولا جريمة ، ومعه الحب الحقيقي » ، « لم يجر لك في بال انه يمكن حل مشكلتك بهذه السهولة ، ها هو الحب والحرية والكرامة والسلام فاين انت ، ولماذا لم تقع المعجزة قبل الجريمة » .

وكان الكاتب يشير بذلك الى ان البشرية لم تكتشف المعجزة .. لم تكتشف طريقها الى الحب والكرامة والسلام ، الا بعد كل الويلات والاهوال والشرور والاخطار والحروب والتضحيات التي اصابتها خلال تاريخها الطويل ، ولا زالت تصيبها .. ان كل خطوة الى التقدم تسبقها آلام شبيهة بآلام المخاض .. ان الانسان لم يكتشف الطريق الا بعد عذاب طويل ومعاناة شديدة !.

ولان المعجزة لم تحدث قبل الجريمة فان صابر يندفع يائسا في طريق كريمة .. طريق الجريمة .. وحتى حين تطلبه الهام في التليفون لامر يتعلق بأبيه يشعر انه حتى ابيه « لا يمكن ان يستحوذ على انتباهه في هذه اللحظة النارية دائما » « أي جديد عن الرحيمي .. وماذا

في السودان

اطلبوا

« الاداب » ومنشورات « دار الاداب »

من مكتبة الاداب

لصاحبها الاستاذ التيجاني عامر

ام درمان ـ شارع الاشبيالية الملكية

يهمه الان » .. « الزيتون (حيث توجد كريمة شريكة جريمته) هي الان كل شيء » .

لكن الزيتون ايضا ليست كل شيء .. فالطريق مسدود .. انه يقتل كريمة نفسها تحت ضغط اليأس والشك واخفاق المطامع .. ثم يدخل السجن . « سجن الموت » حيث يتحرر « من علاقات الحياة » .

وتتحدث الصحف عن ازمة صابر ، ويناقشها استاذ الجامعة ، وكاتب اليوميات ، واستاذ علم النفس ، واستاذ الخدمة الاجتماعية ، ورجل الدين .. ولكن « احدا منهم لا يعرف ان كان الرحيمي موجودا أم لا ! » .

وفي السجن يقابله المحامي الذي وكلته الهام للدفاع عنه .. انها ما زالت تقف بجانبه ، ولكن .. كصديقة .. اما ابوها وقد تأثر بالازمة التي مرت بها نتيجة لتأثرها بموقف صابر .. فانه قد استيقظ من جحوده وجاء اليها واخذها معه الى اسيوط للاستشفاء !.. وكأن الانسانية التي عانت وما زالت تعاني من الازمات التي تصيبها ما زالت في حاجة الى الاستشفاء !!.

واذا كان ابو الهام استيقظ من جحوده ، فان سيد سيد الرحيمي لم يستيقظ بعد ، ولكن صابر ، تحت ضغط اليأس الذي يعانيه والطريق المسدود الذي سار فيه ما زال يتطلع الى ابيه .. الى بيد سيد الرحيمي لكي ينقذه .. لقد عاد من جديد يتذكر مهمة البحث عن التي كان قد نسيها .. ولكن اين الاب المفتقد ؟!

ان المحامي ينقل اليه معلومات متعلقة بأبيه .. سمعها من رجل جاوز التسعين اسمه « برهان » !.. يقول عنه المحامي انه « افقه من عرفت في الشريعة » !..

وتقول هذه المعلومات ان الاب « سيد سيد الرحيمي » مليونير يتجول من قارة الى اخرى « كما يتجول اصبعك بين طرفي شاربك » وانه « يتخذ اسماء وشخصيات شتى » وهو « لا يتحدث الا عن الحب ويمارسه بشتى انواعه !.. الجنس والعذري ، لا يعتق ناضجة او مراهقة، ارملة او متزوجة او مطلقة ، فقيرة او غنية ، حتى الخادمات وجامعات الاعقاب والمتسولات » و « لا احد له في مصر الا الذرية التي يحتمل ان يكون قد انجبها في مغامراته العديدة » وقد اهدى صديقه الفقيه كتاب عنوانه « كيف تحتفظ بشبابك مائة عام » وهو يقهر المتاعب ، ولا يعرف سوء الحظ و « قوانين الدولة لا تهدده » .

هذه هي صفات الاب كما يرويها الفقيه والصحفي المخضرم « برهان » !

وما يمكن ان نفهمه من هذه الصفات .. ان الاب هو الطبيعة نفسها .. قوة الاخصاب والاستمرار وبقاء النوع .. ابوه هو الطبيعة نفسها التي تتجدد بالاخصاب والتناسل .. ولا تستطيع قوة ان تمنع استمرارها .. ان كل ما نستطيع ان نعرفه عن الحياة انها موجودة ومستمرة ومتجددة ..

وليس هذا هو ما يبحث عنه صابر بالضبط .. انه يبحث عن قوة فوق الواقع .. انه يبحث عن ابيه الذي حدثته عنه امه والذي يملك قدرات لا حد لها .. وليس هذا الاب الذي تحدث عنه برهان .. ولذلك فان هذه المعلومات لا تشفي غليله .. يقول صابر « يخيل الي اني لم اعرف شيئا مجديا » و « فضلا عن عدم جدواه فما زال بعيدا عن اليقين» و « بسبب هذه المعرفة اصبح الرجل اعز منالا من الاول » و « قد ضاعت الحرية والكرامة والسلام والهام وكريمة » .

ولكن صابر « برغم شكه هذا .. ما زال ، تحت ضغط اليأس يتشبث بالبحث ، ويقول انه « لن ييأس الا اذا وقع اليأس » ولكن كل ذلك بلا جدوى .. انه يضطر الى ان يقول في النهاية : « فليكن ما يكون » .

فانه لن يجني من الاهتمام بأبيه كما يقول له المحامي الا « التعب الضائع » لانه « لا جدوى الا فيما هو معقول » !.. ولكن « الامل مع ذلك لم ينعدم » فما زال هناك الاستئناف ثم النقض .. ولكن ذلك متوقف على القانون .. مصير صابر كما يقول المحامي « بيد القانون وحده » بيد الواقع !.. ولا يستطيع ابوه ان يفعل له شيئا .

على ان هناك ملاحظة اخرى هامة ، وهي ان « البحث » وان كان ينتهي الى نوع من اليأس والاستسلام الا انه لا يقطع بوجود او عدم وجود الاب .. وجود القوى الميتافيزيقية .! لا احد يعرف ان كان الرحيمي موجودا أم لا » ، « لا تستطيع ان تقطع في ذلك برأي حاسم » ، « ان هذا البحث يجب ان يترك للزمن الطويل » « ان الوقت هو الذي يحل مشكلة من هذا النوع » .. يقول المحامي لصابر عن الاستئناف والنقض « ستجد عندئذ فرصة مؤجلة لاستئناف البحث » .. ان الكاتب لا يسد هذا الطريق تماما !..

يقول نجيب محفوظ في مقال له بمجلة الكاتب بعنوان « اتجاهي الجديد ومستقبل الرواية » (عدد ٣٥ – فبراير ١٩٦٤) ..

« من الناحية الموضوعية ، فان انكار المعاني العليا في الحياة اذا كان يجد ادلة وبراهين ، فاحتمالات وجودها ليس اضعف من احتمالات انكارها ، وهذا الانكار غير المقطوع بصحته خطأ اخلاقي يصل بالانسان الى اقصى درجات اليأس » !! ..

واذا كان الكاتب لا يسد هذا الطريق تماما .. الا انه يجعل مصير صابر مرتبطا بالقانون وحده .. يجعل مصير الانسان مرتبطا بالواقع وما يخلقه من قوانين وقيم .. اي ان الرواية تقول :

« ان البحث عن المعاني العليا فوق الواقع ليس هو السؤال الذي يجب ان نبحث عن اجابة له .. ليس هذا هو الطريق !.. مسألة تترك للزمن الطويل !..

لكن الطريق ان نبحث عن هذه المعاني فوق ارض الواقع الذي يرتبط به مصير الانسان .. ان الطريق هو طريق الهام .. الارض الثابتة .. العمل والامل ومعرفة الهدف وفهم الواقع ومواصلة تعمقه واكتشاف اسراره .. التغيير والتعذيب .. التطور والتقدم .. طريق ليس في مفهومه اليأس .. انه الطريق الحقيقي الى المستقبل .. الى الحب والحرية والكرامة والسلام ! » .

القاهرة

محمود حشمت

صدر حديثا

كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل

علي أحمد سعيد (ادونيس)

في مجموعته الشعرية الجديدة

أثر شعري كبير لشاعر كبير

يطلب من المكتبات الكبرى، ومن الناشرين (المكتبة العصرية - بيروت - صيدا)

ثمن الكتاب ٥ ل.ل. أو ما يعادلها

المكتبة العصرية